خطبة صلاة الجمعة 19/ 11/ 2021 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(التودد إلى الناس عند النبي ﷺ، وكيف نتحلى به)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

وقال سبحانه مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

أخرج الإمام الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكم إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِني مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ: أَحَاسِنَكُم أخلاقاً**».

وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**» وفي رواية البزار «**مكارم الأخلاق**».

مع مطلعِ شهرِ ربيع الأول شهر ولادة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بدأنا سلسلة جديدة من الخطب تناسب الزمان والاحتياج عنوانها: (**أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف نتحلّى بها**).

وهذه الخطبة السابعة وعنوانها:

التودد إلى الناس عند النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف نتحلى به.

أيها الإخوة:

سبق أن الخُلق هو اسم لصورة الإنسان الباطنة، كما أن الخِلْقة اسم لصورته الظاهرة. (لسان العرب).

والأخلاق تكون فطرية وتكون مكتسبة، فمن فطره الله على خلق حسن فليحمد الله ومن لم يجده في نفسه فليتدرب على اكتسابه، وهذا الواجب العملي الأهم على مستمع هذه السلسلة.

أيها الإخوة:

التودد إلى الناس والتحبب إليهم سمة العقلاء، ولا يزال العاقل يألف ويؤلف، يحب السلام والوئام ويكره العداوة والخصام.

ويحتاج اختيار المداخل إلى القلوب إلى فطنة، بها يترصد المرء المواقف المناسبة والأقوال المناسبة والأعمال المناسبة، فتتسلل محبته لقلوب الناس.

وأصل الأمر وملاكه أن تكون محبوباً عند الله، ومتخلقاً بالأخلاق العالية؛ فيضعَ الله لك القبول في الأرض، والمحبة في قلوب العباد.

أخرج البخاري في صحيحه والترمذي في جامعه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا أحب الله عبدا نادى جبريل: إني قد أحببت فلانا فأحبه "، قال: " فينادي في السماء، ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله:** ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا﴾ [مريم: 96]، **وإذا أبغض الله عبدا نادى جبريل: إني قد أبغضت فلانا، فينادي في السماء ثم تنزل له البغضاء في الأرض**».

وإذا كان حديث اليوم عن التودد إلى الناس عند النبي صلى الله عليه وسلم وكيف نتحلى به، فإليكم هذه المواقف من السيرة العطرة.

1-أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكره، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي، قلت يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اللهم اهد أمّ أبي هريرة**» فخرجت مستبشراً بدعوة نبي الله صلى الله عليه وسلم، فلما جئت فصرت إلى الباب، فإذا هو مجاف، فسمعَتْ أمي خَشْفَ قدميَّ، فقالت: مكانك يا أبا هريرة وسمعت خضخضة الماء، قال: فاغتسلتْ ولبست درعها وعجِلَتْ عن خمارها، ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة أشهد

أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، قال فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيراً.

قال قلت: يا رسول الله ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اللهم حبب عبيدك هذا** – يعني أبا هريرة – **وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين**» فما خُلِقَ مؤمنٌ يسمع بي ولا يراني إلا أحبني.

وهذه واحدة في التودد إلى الناس، وطلب الصحابي الدعاء بذلك، ودعاؤه صلى الله عليه وسلم له بذلك.

2- أخرج ابن عساكر في تاريخه وابن سعد في طبقاته عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم سبّاباً ولا لعّاناً ولا فحّاشاً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقيه أحدٌ من أصحابه فقام قام معه فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه، وإذا لقيه أحدٌ من أصحابه فتناول يده ناولها إياه فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده منه، وإذا لقي أحداً من أصحابه فتناول أذنه ناولها فلم ينزِعها حتى يكون هو الذي ينزِعها عنه.

وهذه ثانية في فعال رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلاله يتودد بها إلى الناس.

3- أخرج البيهقي في الشعب عن سهل بن حُنَيف رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم.

وهذه ثالثة في تحببه صلى الله عليه وسلم إلى الناس، ولذلك وصفه الناعتون فقالوا: (من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله) [الترمذي].

فالتودد إلى الناس خُلُق النبي صلى الله عليه وسلم، وهو صلى الله عليه وسلم معروف به، والمتوقع أن يكون التحبب إلى الناس وصفَك، وأن تكون معروفاً به.

اعتاد واحد من المدرسين أن يبدأ حصته في كل مرةٍ بهدية يقدمها للطلاب، بيتٍ من الشعر جميل أو قصة أدبية لطيفة أو أحجية يثير بها انتباههم، فكان الطلاب يحبون هذا المدرس وينتظرون وقت حصته الدرسية.

إنه التودد إلى الناس، ورأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس.

يحمل بعض كبار السن قطع الحلوى الصغيرة في جيبه، وكلما رأى طفلاً صغيراً في المسجد أو المنزل أو العمل يقدم له قطعة منها، فهم يحبون لقاءه والاجتماع به.

إنه التودد إلى الناس، ورأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس.

كان العتابي يلقى النَّاس كلّهم بالبشر، يسلم عليهم ويبتسم لهم ويحسن لقاءهم، فسئل مرةً عن ذلك فقال: (دفع ضغينة بأيسر مؤونة، واكتساب إخوان بأيسر مبذول).

إنه التودد إلى الناس، ورأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس.

وقعت فتاة صغيرة في قاعة المغادرين في حرم المطار، فشجَّ رأسها واختلجت فنصح طبيب المستوصف ألا تركب الطائرة في هذه الرحلة، وأن تراجع مشفى المدينة للاطمئنان.

نقلتها سيارة الإسعاف مع والديها إلى المشفى، وطلب أطباء المشفى إبقاء الصغيرة في المشفى ليوم واحد للاطمئنان عليها، وإنها تستطيع السفر مع والديها بعد ذلك.

تفاجأ الأبوان في مساء ذلك اليوم بعامل بسيط من عمال المطار رأى الحادثة، وسأل عن المشفى التي أسعفت لها الفتاة، جاء حاملاً هدية متواضعة ليطمئنَّ على الصغيرة.

فما كان من والد الفتاة إلا أن اعتمده بعد حين وكيلاً لأعماله في المطار كلما سافر أو عاد، إذ كان رجل أعمال كثير الترحال، لقاء أجر شهري كبير جداً.

إنه جزء من أجر التودد إلى الناس، ورأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس.

فُقِدت ساعة يدٍ لطالب من طلاب الصف الرابع الابتدائي، ففتش المدرس حقائب الطلاب ولم يجد شيئاً، ثم إنه صفَّ الطلاب وراح يفتش جيوبهم، فوجد الساعة مع أحدهم، ولكنه تابع التفتيش في جيوب الباقين، ولما انتهى من الجميع أعطاها لصاحبها من دون أن يشير للمسيء بشيء.

وحفظ المسيء للمدرس معروفه وأضمر محبةً له في قلبه؛ لأنه ستره ولم يفضحه عالماً أنها زلةُ قدم من طفل.

وتمر الأيام ويتخرج الطالب في الجامعة ويتزوج، ويلتقي مصادفةٍ بمدرسه القديم فيستضيفه في بيته ويذكره بنفسه وبالحادثة القديمة التي جرت في صفهم وكيف أثّر معروف المدرس في نفسه وأورثه حباً لمدرسه، وأنه مع معرفته بالفاعل ولكنه أخفاه عن الجميع.

ولكن المدرس فاجأ الطالب يقوله: ولكنني يا بني لم أكن أعرف الفاعل؛ لأنني تعمدت عندما فتشتُ جيوب الطلاب أن أغمض عينيّ حتى لا أعرف الفاعل فيقع في قلبي حديث سوء عليه!

إنه التودد إلى الناس، ورأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس.

أيها الإخوة:

أهم ما في هذه الخطب خاتمتها، وفيها الواجب العملي منها.

ختاماً: كيف تتحلى بالتودد إلى الناس؟

الجواب: أربعة أمور بها تتودد إلى الناس فتحبهم ويحبونك:

الإحسان إلى الناس، والإيجابية في التَّعامل مع الناس، وترك المعاصي، وحُسْن الخُلُق.

أوَّلاً: الإحسان إلى الناس:

أَحْسِن للقريب والبعيد، للصَّغير والكبير، إلى من لك عنده مصلحة ومن لا مصلحة لك عنده، لمن عرفت ولمن لم تعرف يكن لك ود كبير عندهم وأجر كبير عند خالقهم قال الله تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:34].

أَحسِنْ إلى النَّاسِ تستعبدْ قلوبَهُمُ ... فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

وأوَّل الإحسان الابتسام، ثمَّ حُسْن اللِّقاء والسَّلام، ثمَّ الهدية، ثمّ إسداء الخدمة والمساعدة بالنَّفس والمال.

ثانياً: الإيجابية في التَّعامل مع الناس:

الإيجابية أن تبذل ما استطعت وتحاول ما قدرت وألا تعجز.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضَّعيف، وفي كلٍّ خير، احرِصْ على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجَزْ، وإن أصابك شيء فلا تقُل: لو أنِّي فعلتُ لكان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَّر الله وما شاءَ فعَل، فإن لو تفتحُ عَمَلَ الشَّيطان**» [مسلم].

ثالثاً: ترك المعاصي:

فإنّ للمعصية ظلمةً في القلب، وشيناً في الوجه، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرِّزق، وبغضةً في قلوب الخَلْق.

وإن للطَّاعة شرحاً في الصَّدر، ونوراً في القلب، وقوة في الجسم، وزيادةً في الرِّزق، وأُلفةً في قلوب الخَلْق ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ [مريم:96].

رابعاً: حُسْن الخُلُق:

فسّعة الأخلاق تفتح كُنوز الأرزاق، وتكثر الأصفياء، وتقلّل الأعداء، وتسهّل الصِّعاب، وتنيل أسمى الرَّغائب وأعزّ المطالب.

إذن هي أربعة بها تتودد إلى الناس وتتحبب: لإحسان للنَّاس، والإيجابية في التَّعامل معهم، وترك المعاصي، وحسن الخلق.

أيها الإخوة:

في شهر ربيع أكثروا من الصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإنّه مَن صلى عليه صلى عليه ومن سلم عليه سلم عليه، وتدارسوا مع من حولكم حديثه صلى الله عليه وسلم وأخلاقه، وسنته وسيرته، ليكون النبي حاضراً فينا وتكون سنته ماثلة بيننا.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

والحمد لله رب العالمين